المحاضرة الثانية: تجنس الرحلة

تعد الرحلة تجليا من تجليات الأشكال الأدبية السردية التي تقوم على ثلاث ركائز: حكاية الرحلة/ الخطاب الذي تتجلى من خلاله ويعد القناة السردية لمريرها/ والنص الذي تتحقق من خلالها أدبيتها ويتفاعل مع غيره من النصوص.

1/ الرحلة بوصفها حكاية:

قوام أدب الرحلة مادة حكائية ترتبط بمجريات الرحلة (أحداث، أخبار، مرويات) يقدمها الرحّالة (الراوي) بوصفها المقابل الموضوعي لما تعرّض له أثناء رحلته وما عايشه واكتسبه من خبرات، تشمل تقرير الحقائق وإصدار الأحكام، ووصف المناظر وأنماط العيش، لتمثّل في مجملها أشكالاً تعبيريّة تمزج بين المعرفة والتخييل نتيجة تعرّضها (تقصيها) لمناحي الحياة المختلفة، إذ "يصير غناها من غنى مؤلفها، وتوجهها من توجهه، لذلك كانت الرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على العصر، فحكايتها ليست تسلية فحسب، بل تشخيصا لمظاهر الإنسان الواقعية المختلفة" (أدب الرحلة الجزائري الحديث- سياق النص وخطاب الأنساق. ص62).

تقوم الحكاية الرحليّة على محكي السفر كبنية قاعدية تعكس تجربة ذاتيّة، ويقدم السفر قصصًا تمزج بين المعرفي والتخييلي تماشيا مع ما يقتضيه الخطاب، كما تصبح في مستوى آخر تجليًا لذات الرحّالة وتشعبات نزعاتها المختلفة، "فالنص الرحلي يعد نصا مذوتا ينطلق مما تعكسه الذات من نوازعها وتكوينها الثقافي" (المرجع السابق. ص ن).

الرحلة نص حكائي يخرج عن المسار الأصلي للحكاية الأصليّة التي تروي قصة السفر من نقطة الانطلاق إلى نقطة العودة، فهي بذلك لا تقف على حكاية واحدة بل تتشعب مسالكها لتشمل العديد من المحكيات الصغرى تصب جميعها في المنحى الأصلي ألا وهو السفر (الرحلة)، ذلك أنّ حكاية الرحلة تجسّد أقوال الرحالين وتفاعلاتهم ومواقفهم ضمن الإطار الزماني والمكاني للرحلة، وهذا ما خوّلها لـ "أن أصبحت نوعا أدبيا قائما بذاته، عندما بدأ تدوينها وكتابتها كنص سردي يحكي هذه التنقلات وبالتالي انتقلت الرحلة من كونها فعلا متجسدا في الزمان، عبر الانتقال من مكان إلى آخر مع حدوث أفعال ووقائع، إلى الرحلة باعتبارها فعلا محكيا يختزل تجربة الفعل السابق ويدونه في شكل سرود بضمير المتكلم" (شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص20-21).

2/ الرحلة بوصفها خطابًا:

يقصد بذلك تحويل الفعل الرحلي إلى خطاب غير اعتباطي يعمل على تذويت العالم، (يقابل الخطاب هنا الفعل الرحلي في حد ذاته ويتم هذا الانتقال عبر وسيط الذات)، إذ يقوم الخطاب بالتركيز على الذات في علاقتها بفضاء الرحلة، ومن خلال فعل الكتابة يقيد الخطاب ما هو جدير بالتقييد وقابل لأن يترك أثرًا في المتلقي بوصفه قارئًا مفترضا

"فالمتكلم في خطاب الرحلة يتمفصل إلى مبئر وشخصية وراو" (السرد العربي مفاهيم وتجليات، ص213)، فالخطاب الرحلي مسند إلى المخاطِب الذي يمثل الشخصية الراحلة ليتقمص الأدوار الثلاثة، التي لا تشتغل بشكل انفرادي، بل تقوم على المزاوجة، حيث يضم الراوي/ المخاطِب إليه صفة المبئر تارة فيصبه راوٍ مبئر، وتارة أخرى يضم إليه الشخصية فيصبح راو شخصية.

يتكفل الراوي/ المبئر برصد العالم، الفضاء الموضوعي وهو منه على مسافة، فتقتصر وظيفته على وصف العالم المشاهد، أما الراوي/ الشخصية فيتمثل في تذويت الفضاء بما يتضمنه من ردة فعل إيجابية أو سلبية، حسب درجة الانفعال ومستوياته قبولا واستنكارا، انطلاقا من خلفية ثقافية معيّنة.

تتأسس الرحلة خطابا بإعادة إنتاج الفعل إلى ملفوظ يقوم على الانتقاء سواء على مستوى التعبير أو الموضوع.

ثمة أساسيات في خطاب الرحلة لتقيم حدودها الفاصلة، من أبرزها العملية السردية التي تمنحها سمتها الخطابية في مقابل الفعل (مادة الرحلة)، وليس السرد سوى عملية انفصال الذات المتكلمة عن الذات الملتقطة (التي تلتقط تفاصيل تجربة الرحلة)، فالعامل المشترك بين المرتحلين هو الرؤية والمشاهدة المقترنة بالسفر، بينما تتجلّى العمليّة السردية كفعل تحويل للرحلة إلى خطاب.

ينصب اهتمام المتلقي على الذات الراحلة أكثر مما يتجه إلى موضوع الرحلة، إذ يحس بفضول لتتبع الرحلة من خلال الرحالة الذي يعد شخصية مركزية تقوم بمختلف الأدوار (بناء وترميم العملية السردية) إذ يقوم الراوي بدورين: الإخبار وتوزيع الأدوار على الشخصية والمبئر، رواية الأحداث (التقرير عبر الشخصية)، ورواية الأمكنة والعوالم (الوصف عبر المبئر)، فالخطاب الرحلي يرتكز على الوصف والسرد اللذين يمثلان الصيغتين المحددتين لشرعية هذا الخطاب، إضافة إلى هيمنة بنية السفر التي تمثل معينه ورافده، في إطار بنية عامة تشكل ملتقى لتعدد الخطابات، ف "خطاب الرحلة خطاب توليفي قائم على عمران متشاكل الأنماط، فلا يؤثر هذا التنوع ما دام عموده الفقري قائم على قبضة السرد والوصف. الذي تتحكم فيهما عين الراصد وذات المتكلم" (عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص65-66).

يعتبر زمن الرحلة مقيدا بحدود المسافة الزمنية التي قضاها الرحالة أثناء رحلته الفعلية، أما زمن الخطاب فتتخلله مسافة قد تقصر وقد تطول، وذلك من خلال الاستطرادات التي تخلخل السرد عبر الاسترجاع والتأمل بإحداث أزمنة ماضية وأخرى مستقبلية، أما من جهة المكان، فالراوي المبئر يعمل على تحويل المرويات عن معالم وعوالم الأمكنة إلى أفضية، إذ لا يبقي المكان مجردا بل يمزجه بذات الراوي ذي النزوع الإنساني العاطفي المحمل ثقافيا وإيديولوجيا.

3/ الرحلة بوصفها نصاً:

تنحصر النصوص الأدبية في قوالب شعرية أو نثرية، تتفرع عنهما أنواع وأنماط، ولم تشذ الرحلة باعتبارها أحد الأشكال الأدبية عن هذه القاعدة، لكنها تنماز بكزنها جنسا أدبيًا تهيمن عليه تيمة السفر وينفتح على أشكال خطابية ومعرفية تتفاعل فيما بينها لتشكّل لبناته.

للنص الرحلي بنية نمطية تدور رحاها على مبدأي الذهاب والإياب وما يتخللهما من محطات كالاستهلال والتقديم وعادات السفر وتقاليد كل بيئة في التوديع والتجهيز للسفر ثم طريق الذهاب وما يتخلله من مختلف المشاهد والأحداث، ثم الوصول وما يتضمنه ثم العودة والوصول وعادات الاستقبال وغيرها، وهذه البنية النمطية قلّما تظفر بها الرحلات الحديثة.

يمكن القول أنّ النص الرحلي هو الخطة المنتهجة في بناء الخطاب العام للرحلة وفق نشاط عقلي منسجم. تتكامل فيه العناصر الفنية: الكاتب والقارئ والمتعاليات النصيّة والبنيات السوسيولسانيّة.